مع أبي تمام في آفاقه :

قصيدة النار

— ٤ —

الأستاذ محمود عزت عرفة

ثمة

... وثالثة القصائد التي أنشأها أبو تمام في الأفشين هي هذه لرائية الهاجية الشامتة التي لا تزال موضوع حديثنا . ولقد كانت أبياتها في وصف النار والمصلبين موضع العجب والإعجاب — كما رأينا — لدى القدماء والمحدثين جميعاً . ذلك أنها تصوير مبتكر دقيق ، لنظر انا أن نعده مبتكراً دقيقاً أيضاً ، بما لابسه من هول المشهد وروعته ، مشوباً بفرحة النفوس لهذا النصر المتتابع بمثله الخليفة لأبناء سامرا في جثث أربع ، لأربعة من رءوس الكفر والخلاف وأهل العداوة للاسلام هم : بابك الخرمي ، والمازيار بن قارن ، وناطس الرومي نائب عمورية ، وحيدر الأفشين .

وقد قام كل فرد بواجبه فتحقق النصر لبريطانيا ، وقام نلسن بواجبه واستشهد في المعركة ، وكان آخر عبارة فاه بها : « حمدا لله وشكرا ، لقد أديت واجبي » « Thank god I have done my duty »

وقد كان من نتائج هذه المعركة أن ظل نابليون محبوسا في أوربا لا يستطيع عنها حولا ، وظلت إنجلترا تقاومه حتى سلم نفسه إليها فنفته إلى جزيرة سانت هيلانة حيث قضى بقية حياته

وجدير بي أن أذكر قبل اختتام حديثي أنه في ١٩١٢ قرر قيصر ألمانيا إنشاء ست بوارج حربية ، فقررت انجلترا إنشاء ١٢ بارجة واحتج القيصر ، ولكن بريطانيا ردت عليه قائلة ، إن الأسطول البريطاني يجب أن يكون في تعداده وقوته مماثلا لأساطيل الدول مجتمعة

أبو الفتوح عطيفة
مدرس أول العلوم الاجتماعية
بسنود الثانوية

إنه المشهد الذي قرت العيون بما تنظر منه ، وهشت الأسماع لما تسمع عنه ، وتاقت القلوب منه البشرى تهجها فتطفيها ، وأعانت له الشمامة التي كانت في شرعة الفضيلة عاراً ، فأصبحت بعد مما يرحض به العار ...

يا مشهداً صدرت بفرحته إلى ... أمصارها القصوى بنو الأمصار
رمقوا أعالي جذعه فكأنما ... وجدوا الهلال عشية الإفطار
واستنشقوا منه قتاراً نشره ... من عنبر ذفر ومسك (داري)
وتحدثوا عن هلكه كحديث من ... بالبيد عن متتابع الأمطار
وتباشروا كتباشر الحرمين في ... قحم السنين بأرخص الأسعار
كانت شمامة شامت عاراً فقد ... صارت به تنضو ثياب العار

ثم يعود أبو تمام فيستعرض وجوه النعم التي حظي بها الأفشين في ظل المعتصم ، فهو قد أحله من قلبه مكانة لا تنفذ إليها مؤثرات الأحداث ، وأرتعه من العيش الهنيء في أطيب مرتع ، وبوأه جانب الأمن والسلامة من أن يتقلب عليه قلبه ، أو تأخذه بوقيعة يده ؛ لأنه كان يطمئن إليه أكثر مما يطمئن الأب الكريم إلى ابنه البار . ثم ماذا ؟ ثم تكشف الأفشين فجأة عن طوية خبيثة ، فإذا هو يسر الكفر إسرارا ، ويصر على اعتقاده إصرارا ؛ بل هو يحن إلى سالف عهده فيه حنيناً لا يخرجه منه إلا أن يرتد إليه ، ويبكي مجد مجوسيته الذاهب بكاء من فقد آثر الأشياء عنده وأعزها لديه :

قد كان بوأه الخليفة جانباً ... من قلبه حرماً على الأقدار
فسقاه ماء الخفض غير مصرد ... وأنامه في الأمن غير غرار
ورأى به ما لم يكن يوما رأى ... عمرو بن شأس قبله بعرار
فإذا ابن كافرة ، يسر بكفره ... وجداً كوجد فرزدق بنوار
وإذا تذكره بكاه كما بكى ... كعب زمان رنى أبا المغوار

وحديث عمرو بن شأس الأسدي مع زوجه وولده مشهور (١) كانت له امرأة من رهطه يقال لها أم حسان بنت الحارث ، وكان له ابن يقال له عرار (٢) من أمة له سوداء . فكانت تعيره به

(١) الأمالي للقالي : ج ٢ ص ١٨٨

(٢) قال الشيخ حمزة فتح الله في المواهب الفتحية ج ٢ ص ٤٠) : وعرار بكسر العين كما ضبطناه ، وان كرر ضبطه في اللسان بفتحها ، وكأنه اعتمد على شارح القاموس إذ ضبطه كذلك بالعبارة حيث قال : وعرار كسحاب ابن عمرو الخ ، وهو خطأ فليتنبه له . ه قلت : وفي ديوان الحماسة بكسر العين

(٣) الأمالي : ج ٢ ص ١٤٧

وتؤذى عراراً ويؤذيها ، وتشتمه ويشتمها . فلما أعيت عمراً بالأذى والمكروه فى ابنه ، قال الكلمة التى فيها هذه الأبيات :

ألم يأنها أنى سموت وأننى ... تحملت حتى ما أطاق من عرم
وأطرقت إطراق الشجاع ولو رأى ... مساغا لنابيه الشجاع لقد أزم
فإن عراراً إن يكن غير واضح ... فإنى أحب الجون ذا المنكب الهمم
وإن عراراً إن يكن ذا شكيمة ... تقاسيمها منه ، فما أملك الشيم
أردت عراراً بالهوان ومن يرد ... عراراً لعمرى بالهوان فقد ظلم !

أما وجد الفرزدق بزوجه (نوار) وندمه على تطليقها ، فليس يعدلها وجد ولا ندم . وهو القائل فى ذلك

ندمت ندامة الكسعى لما ... غدت منى مطلقة نوار

والذى يشير إليه أبو تمام من رثاء كعب لأبى المنوار ، هو البائية التى أنشدها كعب بن سعد الغنوى فى رثاء أبى المنوار ، واسمه هرم أو شبيب (٣) ، وفيها يقول :

وداع دعا : يامن يجيب إلى الندى ... فلم يستجبه عند ذاك مجيب
فقلت ادع أخرى وارفع الصوت دعوة ... لعل أبا المنوار منك قريب
يجيبك كما قد كان يفعل ، إنه ... مجيب لأبواب العلاء طلوب
فإنى لباكيه ، وإنى لصادق ... عليه ، وبعض القائلين كذوب

* * *

وكان فى آل كاوس جماعة من ذوى النفوذ والجاه كالفضل ابن كاوس أخى الأفشين الذى أبلى معه فى حرب الخرمية بلاء عظيما . والحسن بن الأفشين زوج أترنجة ابنة القائد أشناس وكان يطمع فى بعض مناصب الولاية فى خراسان . فكان مقتل الأفشين مما يستوجب الضرب على أيدى أمثال هؤلاء ممن لا تؤمن بادرتهم ، وقد نجحت خطة المعتصم فى ذلك بمعونة عبدالله بن طاهر ولم يكن ليغيب عن أبى تمام لزوم هذا الإجراء الحاسم ، فهو يذكره للمعتصم ويشير به عليه ؛ ويذكر ألا حرج فى إلحاق أعيان آل كاوس بمصير سيدهم ، لأنهم جميعا أهل فتنة وخلاف . وأين كان الأفشين قد لقى من بينهم جزاء ما أظهر من خيانة ، فكل منهم فى خبيئة نفسه وباطن أمره « أفشين » . فحقهم أن يلقوا مالقى ، وأن يذوقوا الكأس التى ذاق

ولا يفوت أبا تمام كعادته أن يستشهد على هذه الحقيقة بحوادث الغابرين ، وأن يستنبط لها الأمثال من سير الماضين . فهو يذكر لنا السامرى صاحب موسى ، وقدارا أشأم ثمود . وعنده أنهما لم يركبا من الشر ما ركبا إلا وكل منهما مؤيد من قومه بما طبعت عليه نفوسهم من الشر . وكأنما كان الله — سبحانه — ينظر إليهم بهذه العين حين شملهم بسخطه وعذابه جميعا . وإذاً فليس أمام المعتصم إن تحرى الحزم والسداد إلا أن يأخذ جميع آل كاوس بجريرة صاحبهم الأفشين :

يا قابضا يد آل كاوس عادلا ... أتبع يميناً منهمو يسار
ألحق جبيناً دامياً وملثه ... بقفا ، وصدرا خائنا بصدار
واعلم بأنك إنما تلقيهمو ... فى بعض ما حفروا من الآبار
لو لم يكد للسامرى قبيله ... ما خار عجلهمو بغير خوار
وثمود لو لم يوغلوا فى ربهم ... لم ترم ناقته بسهم قدار

ثم يختم الشاعر الموضوع الأصيل من قصيدته بإعادة ذكر المصلبين وقد لبست أجسادهم من لفح النار سوادا كالقار . ثم عبثت بها أيدى النسائم فانعطف بعضها إلى بعض كأنها فى سرار ومناجاة .

ويذكر بعد ذلك أنهم ركبوا مطايا ضوامر ليست كالجياد من لحم وعصب ، ولكنها من حديد وخشب ، وأنهم فى استطاعتهم إياها كانوا أشبه شئ بالسفر المغذين وهم مع ذلك لا ينقلون قدما أو يبرحون موضعا . وقد ذكرنا ثلاثا من هذه الأبيات أنشدت فى مجلس محمد بن منصور ، ونحن نعيد الأبيات هنا بجملتها ، وهى ستة :

ولقد شفى الأحشاء من برحائها ... أن صار بابك جار مازيار
ثانيه فى كبد السماء ، ولم يكن ... لاثنين ثانيا اذ هما فى الغار
وكأنما ابتدرا لكيما يطويا ... عن ناظس خبرا من الأخبار
سود اللباس كأنما نسجت لهم ... أيدى الهموم مدارعا من قار
بكروا وأسروا فى متون ضوامر ... قيدت لهم من مربط للنجار
لا يبرحون ومن رآهم خالهم ... أبدا على سفر من الأسفار

وفى البيت الأول « ولقد شفى الأحشاء — الخ » اشارة إلى

أولى التهم التى أخذ بها الأفشين ، وهى حضه مازيار بن قارن على الخلاف فى طبرستان . وفى الحق إنها كانت أخطر هذه التهم كذلك ، ومن أجلها وحدها تقرر مصير الأفشين وصحت نية الخليفة على الإيقاع به ...

ويكفى للتدليل على ذلك أن نقول إن القبض على الأفشين وقع قبل الدخول بمازيار إلى سر من رأى بيوم واحد . حكى ذلك الطبرى فقال : « جلس المعتصم فى دار العامة لخمس ليال خلون من ذى القعدة (٢٢٥ هـ) وأمر بجمع بينه — يعنى مازيار — وبين الأفشين . وقد كان حبس قبل ذلك بيوم . . » (٤) وإذاً فلم يكن سائر ما ألصق بالأفشين من تهم — إلى جانب تحريضه مازيار — إلا نوعا من الاستقصاء ، وتلمسا لما يبرر الانقلاب عليه ، وإخلاء موضعه منه . أو قل إن ضعف هذه التهمة - وقد أشرنا قبل إلى اضطراب الروايات حولها (٥) — لمستدعي أن يضاف إليها ما يعززها ، ويضاعف من نسجها

أما البيت الذى قال فيه :

وكأنما ابتدرا لكيما يطويا عن ناطس خبراً من الأخبار

فقد كان بند عنى فهم المراد منه ، حتى وقفت على تفسير له فى تاريخ المسعودى . قال (٦) : ومالت خشبة مازيار إلى خشبة بابك فتدانت أجسامهما ، وكان قد صلب فى ذلك الموضع ناطس بطريق عمورية ، وقد انحنت نحوهما خشبته ، ففى ذلك يقول أبو تمام : ولقد شفى الأحشاء ... الأبيات

ولقد تجنى صاحب « الموازنة » على اثنين من هذه الأبيات ، أولها قوله :

ثانيه فى كبد السماء ولم يكن لاثنين ثانياً اذهما فى النار

أورده « ولم يكن لاثنين ثان » ثم قال : (٧) كان يجب أن يقول « ثانيا » لأنه خبر يكن ، واسمها هو اسم بابك مضمر فيها . فليس إلى غير النصب سبيل فى البيت وإلا بطل المعنى وفسد .

ونقول : إن المعنى يبطل حتما بالرفع ويفسد ؛ ولكن رواية النصب هى المأثورة ، وقد وردت فى الديوان . ويستلزم ذلك وصل الهمزة المنقطعة فى (إذ) وتلك ضرورة شعرية يبررها استقامة البيت معها إعرابا ومعنى

أما البيت الثانى فقوله :

لايبرحون ومن رآهم خالهم أبداً على سفر من الأسفار

يقول الآمدى : (٨) قال بعض الأعراب يصف المصلوب ، وأنشد ثعلب :

قام ولما يستتم ساقه آلف مثواه على فراقه
كأنما يضحك فى إشراقه

أخذ أبو تمام قوله : آلف مثواه على فراقه فقال : لايبرحون . البيت . وهكذا يعتد الآمدى هذا البيت من سرقات أبى تمام على وجه من التكلف بغيض ، يكاد يطالعنا فى كل ما عقده القدماء تحت عنوان (السرقات الشعرية)

وإلى هنا يفرغ أبو تمام من المعانى التى حشد لها فكره مما يتصل بحياة الأفشين وموته ؛ وهو كما يرى القارئ ، وكما شهد له معاصروه ، كان كثير الاتكاء على نفسه ، حفيا بكل معنى مبتكر ، يعنى باستنباطه نفسه ، ويشحذ له جد ذهنه ، لا يحس فى ذلك كلالا ولا يستشعر وهنا ؛ حتى لكأنه يأخذ نفسه دائما بما وصف به بعض شعره حين قال :

أما المعانى فهى أبكار إذا نسبت ، ولكن القوافى عون

ولا يختم أبو تمام قصيدته قبل أن يشيد باستحسان ما أقره المعتصم من ولاية العهد لابنه هرون (الواثق بالله) ففى ذلك جمع لشمل المسلمين ، وثحر لمصلحتهم . مع قمع شياطين الفتنة ، وتوطيد دعائم الحكم العادل ، وضمان صيانة هذا الملك العريض أن ينفرط عقد أقطاره ، أو يتعطل معصمه من سواره ، وفى ذلك يقول أبو تمام :

فاشدد بهرون الخلافة إنه سكن لوحشتها ودار قرار
بفتى بنى العباس والقمر الذى حفته أنجم يعرب ونزار

ثم يقول :

فاقمع شياطين النفاق بمهتد ترضى البرية هديه ، والبارى

(٤) الطبرى : ج ١٠ ص ٣٦٣
(٥) الطبرى : ج ١٠ ص ٣٦٣ ، ٣٦٦ — والكامل : ج ٦ ص ١٨٢ ، ١٩٠ — والبداية والنهاية : ج ١٠ ص ٢٨٩ — والنجوم الزاهرة : ج ٢ ص ٢٤٢
(٦) مروج الذهب للمسعودى : ج ٢ ص ٣٥١
(٧) ، (٨) الموازنة بين الطائيين للآمدى ص ١٢ ، ٣٥